مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الحادي والعشرين - المجلد الأول - علوم القرآن - آذار 2023 م
doi.org/10.52866/esj.2021.01.21.13

آيات القُرْآن الكريم بين العموم والإطلاق وبين التَّفاسير النَّبويّة

أ. م. د. قيس عبدالله محمد جاسم/ كلية الإلهيات - جامعة هيتيت / تركيا

مستخلص:

هذه المقالة تُفصّل العلاقة بين عموم النّصوص القرآنيّة وإطْلاقها، وبين بعض الأحاديث الصّحيحة المُفسِّرة لهذه النّصوص، ووقوع النّاس بين طرفي نقيض فيها: بين فريقٍ يَجْحد السّنة، وبين فريقٍ آخر يجعل مِن هذه الأحاديث النَّبويّة سببًا لتعطيل معاني الآياتِ العامة الشّاملة المتجدِّدة.

وحيث لم أجدْ مَن فصّلَ هذه المسألةَ، فقدْ قمت بدراسة (11) آيةً كريمة مع الأحاديث الصّحيحة التي فسرتها، ونقلتُ كلام العلماء الّذين بيّنوا أنّ هذه الأحاديث لا تحصرُ معنى الآيات، بل يُمكننا أنْ نفهم مِن عموم وإطلاق الآيات معانيَ أخرى غير المعاني التي أشار إليها الرّسول ﷺ؛ وذلك لأنّ التَّفاسير النَّبويّة للآيات قد تكون على سبيل التَّمثيل بأهمِّ معانيها. أو تكون لدفع شبهة معيّنة أو تكون بمتضمَنها أو بلازمها أو بثَمَرَتها ..

فيستحيل أنْ تكون السّنّةُ مضيِّقةً لمعاني الآيات، ولكن الفَهْم هو السّبب؛ إذْ القُرآن والسّنّة مَعصومان، أمّا أفهامنا فليست كذلك.

وهذا لا يعني أنّ بعض الأحاديث لا تُخصّص أو تقيّد القُرآن، بل هي كذلك، ولكن يبقى لعموم الكتاب معانيه التي تُكتَشف بالتّدبر العميق والعلم الدّقيق ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. فعموم القُرآن وإطْلاقه يبقى على حاله، ما لم يأتِ دليلٌ صحيحٌ صريحٌ لا تأويلَ له يُزيله عنه.

وقد صاغَ الله ألفاظَ القُرآن بصورةٍ معجزةٍ قابلةٍ لتجدّد المعاني بكلّ زمان ومكان؛ لأنّ الله أنزله تفصيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.

وكانت نتيجة هذه المقالة أنّه يجوز التّمسّكُ بعموم القُرْآن، واستنباطُ المعاني الجديدة منها، والزّيادةُ على تفسير النّبيّ ﷺ؛ ولكن بشرطِ أنْ لا تكون المعاني المستنبطةُ مخالفةً لنصوصِ الكتابِ والسّنةِ. وأنْ لا تخالف الإجْماع، أو قواعدَ التَّفسيرِ واللّغةِ العربيةِ.

الكلمات المفتاحيّة: التّفسير النّبوي، عموم القُرْآن وإطلاقه، المعاني المتجدِّدة، اللّغة العربيّة.

The Verses of the Noble Qur'an between (the general and the generalization), and the Prophetic interpretations.

Yardımcı Doçent Doktor. Qays abdullah mohammed
ilahiyat fakültasi / Hitit Üniversitesi
goldmanasd69@yahoo.com / Tel. 05354698835\

Abstract :

This article shows the relationship between the general Qur'anic texts and their generalization in detail, and some of the true hadiths interpreting these texts. In fact, people divided into two groups: The first denies the Sunnah, while the other makes these Prophetic hadiths a reason to disrupt the meanings of the renewed comprehensive verses.

As I have not found someone who studied this issue in detail, I have studied (11) eleven verses with the true hadiths that I have interpreted, and quoted the words of scholars who have shown that these hadiths do not limit the meaning of the verses, but we can understand from the general and generalization of verses meanings other than those referred to by the Prophet.

It is impossible for the Sunnah to be narrow to the verses of Qur'an, but understanding is the reason.

This does not mean that some hadiths do not allocate or restrict the Qur'an, but rather that they are. The whole book (Qur'an) still has its meanings, which are discovered by deep knowledge.

Allah miraculously formulated the words of the Qur'an that can renew meanings at all times and places, because Allah has revealed them in detail of everything.

The result of this article was that it is permissible to adhere to the whole Qur'an, derive new meanings from it, and increase the interpretation of the Prophet, provided that the meanings inferred are not contrary to the texts of the Qur'an and Sunnah.

Keywords: prophetic interpretation, renewed meanings, Arabic language.

(1) ص 38/ 29.

مقدِّمة

الحمد لله والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإنّ الله ﷻ بعث محمّدًا ﷺ رحمةً للعالمين، ونذيرًا وبشيرًا بكتابٍ أُحكمتْ آياته وفُصّلت بيّناته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، بيّنَ فيه كلّ مناهج السّعادة في الدّارين، كلّ ذلك في آياتٍ أجْملها، وألْفاظٍ اختصرها.

وفرضَ على الخلق أجمعين طاعة رسوله، وقرنَ ذلك بطاعته وبعبادته، ونهى عن مخالفته، وتواعد عليه بأغلظ الوعيد في آياتٍ كثيرة من كتابه، فَقَالَ ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1]، وَقَالَ ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[3].

والسّنة كالقرآن كلاهما مصدرٌ معصوم قال ﷻ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[4]، وعَنِ الْمِقْدَام بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»[5].

ومن ثمّ أمر نبيّه ﷺ بتبليغ القرآن وتخصيص عامّه، وتبيين مجمله، وتفصيل مدرجه، وتوضيح مبهمه ... فقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6].

وقد صاغ الله ألفاظ القُرآن بصورةٍ معجزة قابلة لتجدّد المعاني مع كلّ زمان ومكان؛ لأنّ الله أنزله تبيانًا وتفصيلًا لكلّ شيء، قَالَ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[7]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[8]، ولذلك قال ابْن مَسْعُودٍ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الأولينَ وَالْآخِرِينَ» وفي رواية: «فإنّ فيه خَيْرَ الأولينَ وَخَيْرَ الآخَرِينَ» وفي رواية: «فَلْيُثَوِّرِ القُرْآن[9]، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأولينَ وَالْآخِرِينَ»[10].

وموضوع بحثنا هو العلاقة بين عموم النّص القُرآني وإطلاقه وبين بيان الرّسول ﷺ للقرآن في ما ورد من تفاسير النّبي القوليّة الصّريحة. وأنّ ألْفاظ الآيات إذا كانت تحتمل

---

(1) النساء 65/ 4.

(2) النساء 80/ 4.

(3) الأحزاب 36/ 33.

(4) النجم 3/ 53، 4.

(5) السنن، الترمذي مُحَمَّد بن عيسى، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: 2، 1975م، بَابُ مَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ ، 2664 ، 5/ 38. وقال، حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(6) النحل 44/ 16.

(7) النحل 16/ 89.

(8) يوسف 12/ 11.

(9) ثَوَّرَ القرآنَ، بحث عن معانيه وعِلمه وتفسيره وقراءته. يُنْظر لسان العرب، ابن منظور مُحَمَّد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط:3، 1414هـ، 110/ 4.

(10) المصنف، ابن أبي شيبة أبو بكر عبدالله بن مُحَمَّد، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ، 126/ 6؛ شعب الإيمان، البيهقي أحمد بن الحسين، مكتبة الرشد، الرياض، 2002م، تعظيم القران، 347/ 3؛ المعجم الكبير، الطَّبراني أبو القاسم سليمان بن احمد، مكتبة الزهراء، الموصل، 1983م، 135/ 9، ورجاله رجالُ الصَّحِيح. يُنْظر مجمع الزوائد، الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994م، 165/ 7.

معانيَ أكثر من بيان الرسول ﷺ، فيجوز الأخذ بالعموم والزيادة على تفسير النبي ﷺ، ولكن بشروط:

(1) أنْ لا تكون المعاني المستنبطةُ مخالفةً للنّصوصِ الثّابتة من الكتابِ والسّنةِ، وخصوصًا الحديث الوارد في تفسير الآية.

(2) أنْ لا يخالف الإجماع.

(3) أنْ لا يخالف قواعدَ التّفسيرِ المعروفةِ ولا قواعدَ اللغةِ العربيةِ وعلومِها.

(4) أنْ يكون الحديث الوارد هو المقدّم في تفسير الآية.

ولا خلاف البتّة بين اللّغة العربيّة وبين بيان الرّسول، لأنّ التّفاسير النّبويّة تكون بِعِدّة أشكال من أشكال التضمن والالتزام: فقد تكون على سبيل التّمثيل بمعظم الشّيء، أو أهمّه. أو تكون بثمرته ونتيجته ومآله. أو تكون بملازمه ومجاوره. أو تكون بباعثه. أو تكون لدفع شبهة معيّنة أو عقيدة فاسدة؛ كما سيتضح لنا من البحث.

والتّمسّك بالعموم الْقُرْآنِيّ أصلٌ مُعتبرٌ ثابت متّفق عليه في التّفسير، ما لم يرِد مخصِّص صحيح صريح؛ فقد ثَبَتَ عن النّبيّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الحُمُرِ- كيف أداء حقّها- فَقَالَ: «لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]»[2]، قال النووي (ت676هـ / 1277م) في شرح هذا الحديث: «الْجَامِعَةِ: أَيَ الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ **وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْعُمُومِ**»[3]، وكذا قال ابن الملقّن (ت804هـ/ 1401م) والعينيّ (ت855هـ/ 1451م)[4]، وما ثبت أَيْضًا مِنِ احتجاج عَمْرو بن العاص ﷺ (ت43هـ/ 664م) لَمَّا أُنْكِرَ عَلَيْهِ تَرْكُ الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَالْعُدُولُ إِلَى التَّيَمُّمِ مَعَ شِدَّةِ الْبَرْدِ. فَقَالَ سَمِعْتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[5] فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأقرَه وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا[6].. **فقد استدلّ بعموم الآية**، كما أشار إلى ذلك كثيرٌ من العلماء كالمرداويّ (ت885هـ/ 1480م) والشّوكانيّ (ت1250هـ/ 1834م) ومحمود السّبكيّ (ت1352هـ/ 1933م)[7].

وهذا الأصل مهمّ حتّى أنّ عمر ﷺ (ت23هـ / 644م) ردّ حديث فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، لَمْ يَجْعَلْ لَهَا سُكْنَى وَلَا نَفَقَةً» لما طلّقت ثلاثا، وقَالَ عُمَرُ: لَا نَتْرُكُ كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَتْ، أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنَى والنَّفَقَةُ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ

(1) الزلزلة 99/ 8.

(2) الجامع الصحيح، البخاري مُحَمَّد بن إسماعيل، دار طوق النجاة، ط:1، بيروت، 2002، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ، 176/ 6.

(3) شرح صحيح مسلم، النووي أبو زكريا يحيى بن شرف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 2، 1392هـ، 67/ 7.

(4) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن سراج الدين، دار النوادر، دمشق، ط: 1، 1429 – 2008، 372/ 15؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني بدر الدين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 216/ 12.

(5) النساء 4/ 29.

(6) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب التيمم، بَابٌ، إِذَا خَافَ الجُنُبُ عَلَى نَفْسِهِ المَرَضَ أَوِ المَوْتَ أَوْ خَافَ العَطَشَ تَيَمَّمَ، 77/ 1، تعليقا؛ السنن، ابو داود، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، كتاب الطهارة، بَابُ إِذَا خَافَ الْجُنُبُ الْبَرْدَ أَيَتَيَمَّمُ، 92/ 1.

(7) يُنْظر التحبير شرح التحرير، المرداوي علاء الدين، تحقيق: عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، الرياض، مكتبة الرشد، 2330/ 5؛ إرشاد الفحول، الشوكاني مُحَمَّد بن علي، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، 1419هـ- 1999م، 292/ 1؛ المنهل العذب المورود شرح سنن ابي داود، محمود السبكي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط: 1، 1353هـ، 187/ 3؛ وينظر الجامع لأحكام القُرآن، القرطبي أبو عبدالله، دار الكُتُب المصرية، القاهرة، ط:2، 1964م، 299/ 12.

أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ (1)﴾...(2).

وتنبع **أهمية البحث** من إثبات إطلاق دلالات القرآن الكريم، والقدرة على استنباط معانٍ جديدة منه -وإن جاءت الأحاديث النبوية الشريفة بتبيين معانيها-، ومعرفة الوجه الذي ينطلق منه العلماء في ذكر معانٍ إضافية لم تذكرها الأحاديث.

وكان **دافعي لهذا البحث** هو أني أثناء قراءتي للقران الكريم أجد معاني كثيرة ومهمة لبعض الآيات التي فسرها سيّدنا رسول الله ﷺ، ولكنّه ﷺ لم يشر إلى هذه المعاني المستنبطة، فأبقى حائرا في صحة هذه المعاني على الرغم من أن النقل والعقل يشهد لها، ومن هذه المعاني ما جاء في بحثي السابق عن «سدرة المنتهى» التي ورد فيها **حديث صحيح يبين الآية** وأنها «**شجرة**»، وقد أشار البحث هناك إلى أنها تحتمل معاني أخرى إضافية فوق ما يحتمله الحديث ولا تتنافى معه، وأوردنا هناك كلام بعض العلماء الذين أشاروا إلى أن تسميتها بالسدرة على وجه التشبيه والاستعارة، لا على وجه الحقيقة، وهؤلاء العلماء أقسام: فمنهم من أطلق ولم يحدد وجه التشبيه. ومنهم من حدد الشبه باجتماع الملائكة في ظلها. ومنهم من حدد الشبه في صفة تَفَرُّعها وانتشارها. أو في كونها حداً انتهى إليها قُرْب النبي ﷺ إلى موضع لم يبلغه قبله ملك. ومنهم من فَسَّرها بأحد معاني «السَّدْر»: وهو تحير النظر، وأن «سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» هي الزَّمَانِ الَّذِي تُحَارُ فِيهِ عُقُولُ الْعُقَلَاءِ... وأشرنا هناك إلى بقاء الحديث على حقيقته، ولكن تفسيرها بالشجرة هو من التفسير بمعظم الشيء وأهمه(3).

فجاء هذا البحث ليبين أن القرآن باق على عمومه وإطلاقه وشموله ما لم يأت دليل قطعي لا يحتمل التأويل في تخصيصه وتقييده.

أما **منهجي في البحث**، فهو بأن أورد الآية الكريمة بحسب ترتيبها في المصحف بادئا من الفاتحة، وأورد معها الحديث الوارد في تفسيرها، ثم أبين **المعنى العام** للعبارة التي فسرها الرسول ﷺ، ثم أذكر كلام العلماء الذين بينوا أنّ الآية **باقية على عمومها**، واذكر كيفية **توجيههم** لكلام الرسول ﷺ.

وسوف أعتمد في بحثي على ما صحَّ من أحاديث التَّفسير النَّبويّ المصرّح برفعها(4)، أما الأحاديث التي ضعّفها العلماء فلا نُوردها، كما فعل الطّبريّ (ت310هـ/ 923م) في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(5)، حيث قال: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصّواب، قولُ من قال بقول ابن الزّبير وعطاء: إنّ ذلك على قدر الطّاقة. لأنّ (السّبيل) في كلام العرب: الطّريقُ، فمن كان واجدًا طريقًا إلى الحجّ لا مانعَ له منه من زَمانة، أو عَجز، أو عدوّ، أو قلّة ماء في طريقه، أو زاد، أو ضعف عن المشي، فعليه فرضُ الحج، لا يجزيه إلا أداؤه... وإنّما قلنا: هذه المقالة أَوْلى بالصّحة مِمّا خالفها، لأنّ الله عزّ وجلّ لم يخصّص، إذ ألزم النّاسَ فرضَ الحجّ، بعضَ مستطيعي السّبيل إليه بسقوط فرض ذلك عنه. فذلك على كل مستطيعٍ إليه

(1) الطلاق 1/ 65.

(2) المسند الصحيح، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب الطلاق، بَابُ الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لَا نَفَقَةَ لَهَا، 1480هـ، 1118/ 2. وينظر التلخيص في أصول الفقه، الجويني ابو المعالي، تحقيق: عبد الله جولم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 111/ 2.

(3) ينظر مجلة الدراسات التربوية والعلمية، كلية التربية في الجامعة العراقية، علوم القرآن، العدد 16، المجلد 2، جمادى الآخرة 1441هـ-شباط 2020م، صفحة 59، 60.

(4) أورد جلال الدين السيوطي في نهاية كتابه الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، لبنان، 1996م، ما جاء عن النبي ﷺ من التفاسير المصرح برفعها صحيحها وَحَسَنِهَا وضَعِيفِهَا، من صفحة، 244/ 4؛ الى صفحة، 298/ 4.

(5) آل عمران 97/ 3.

سبيلًا بعموم الآية. فأمّا الأخبار التي رُويت عن رسول الله ﷺ في ذلك بأنّه: (الزّاد والرّاحلة)[1]، **فإنّها أخبار: في أسانيدها نظر، لا يجوز الاحتجاج بمثلها في الدّين**»[2].

وحيث لم أجدْ **دراسات سابقة** تفصّلَ هذه المسألةَ وتوضحها، فقدْ توكلت على الله في كتابة هذا البُحيث، ولم أرد التطويل فاكتفيت بذكر (11) مسألة توضح المراد وتبين المقصود.

والآن لندرسَ بعضَ هذه التَّفاسير النَّبويّة للآيات القُرآنيّة:

المثال الأول: في قوله ﷻ: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾[3]. **فقد جاء عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ والنَّصَارَى ضُلَّالٌ»**[4].

وصيغة الحديث كما ترى جاءت **بصيغة التَّمثيل**: لأنّ القرآن ذكر أنّ الغضب والضّلال وردا لجميع الكفّار على العموم فقد قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[5] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[6]، وذكر أنّ من المغضوب عليهم قومَ عاد وهم قبل اليهود، قال ﷻ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[7]، وقال ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[8].

ولذلك قال القونويّ (1195هـ/ 1781م) وابن التّمجيد (ت نحو880هـ/ نحو1475م): الْمُرَاد من الخبر اللّطيف بيان أشنع الأنواع من ذلك الجنس لا الحصر **والحُديث لا يوجب التَّخْصِيص لجواز أن يراد التَّمثيل**[9].

وقال ابن عاشور (ت1393هـ/ 1973م): «وما ورد في الأثر من تفسير المغضوب عليهم باليهود والضّالين بالنّصارى، **فهو من قَبِيل التَّمثيل بأشهر الفِرَق التي حقّ عليها هذان الوصفان**»[10].

ويقول الطّبريّ: «فكلّ حائدٍ عن قَصْد السبيل، وسالكٍ غيرَ المنهج القويم، فضَالٌّ عند العرب، لإضلاله وَجهَ الطّريق. فلذلك سمّى الله جلّ ذكره النّصارَى ضُلّالا لخطئهم في الحقِّ مَنهجَ السّبيل، وأخذهم من الدِّين في غير الطّريق المستقيم. فإنْ قال قائل: أوَ ليس ذلك أيضًا من صفة اليهود؟ قيل: بلى!

فإن قال: كيف خَصّ النصارَى بهذه الصّفة، وَخصّ اليهودَ بما وصفَهم به من أنهم مغضوب عليهم؟

قيل: كلا الفريقين ضُلاّل مغضوبٌ عليهم، غيرَ أنّ الله جلّ ثناؤه وَسم كلَّ فريقٍ منهم من صِفَته لعباده بما يعرفونه به»[11].

ويقول ابن تيمية (ت728هـ/ 1328م): «وقد روى التّرمذي وغيره عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ والنّصَارَى

---

(1) السنن، الترمذي، أبواب الحج، بَابُ مَا جَاءَ فِي إِيجَابِ الحَجِّ بِالزَّادِ وَالرَّاحِلَة، 813، 168/ 3؛ وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

(2) الطبري مُحَمَّد بن جرير، جامع البيان، ط:1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2000م، 45/ 6.

(3) الفاتحة 1/ 7.

(4) الترمذي، السنن، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله، باب، ومن سورة فاتحة الكتاب، 2954، 202/ 5. وهو صحيح.

(5) النحل 106/ 16.

(6) النساء 167/ 4.

(7) الأعراف 71/ 7.

(8) الأنعام 77/ 6.

(9) ينظر حاشيتان على البيضاوي، القونوي عصام الدين إسْمَاعيل بن مُحَمَّد، وابن التمجيد مصلح الدين، تحقيق: عبدالله محمود مُحَمَّد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 2001 م، 284/ 1.

(10) التحرير والتنوير، ابن عاشور مُحَمَّد بن الطاهر، الدار التونسية للنشر، تونس، ط:1، 1984م، 199/ 1.

(11) جامع البيان، الطبري، 195/ 1.

ضالون» قال التّرمذيّ: حديث صحيح. وقال سفيان بن عيينة (ت814/ 198): كانوا يقولون: من فسدَ من علمائنا ففيه شبهٌ من اليهود، ومن فسدَ من عُبّادنا ففيه شبه من النّصارى. وكان غير واحد من السّلف يقول: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإنّ فتنتهما فتنة لكلّ مفتون. **فمن عرف الحقّ ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم:** ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. **ومن عبدَ الله بغير علم بل بالغلوّ والشّرك أشبه النّصارى الذين قال الله فيهم:** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]»[3].

ويقول ابن كثير (ت774هـ/ 1373م): «فإنّ طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحقّ والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنّصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود والضّلال للنّصارى، لأنّ من علمَ وتركَ استحقّ الغضب خلاف من لم يعلم، والنّصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنّهم لا يهتدون إلى طريقه لأنّهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتّباع الرّسول الحقّ، ضلّوا، **وكلّ من اليهود والنّصارى ضالّ مغضوب عليه، لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب،** كما قال ﷻ عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[4] **وأخصّ أوصاف النّصارى الضّلال،** كما قال ﷻ عنهم ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[5] وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بيّن»[6].

(1) البقرة 2/ 44.

(2) المائدة 5/ 77.

(3) مجموع الفتاوى، ابن تيمية تقي الدين، دار الوفاء، مصر، ط:3، 2005م، 1/ 197.

(4) المائدة 60/ 5.

(5) المائدة 77/ 5.

(6) تفسير القُرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء، المكتبة العلمية، بيروت، 1999م، 1/ 55.

وعلى ما ذكرنا من إرادة التّمثيل لا التّنصيص: الرّازيّ (ت606هـ / 1210م) والبيضاويّ (ت685هـ / 1286م) وابن عادل (ت نحو880هـ / نحو1475م) والإيجي (ت905هـ / 1500م) وابن عجيبة (ت1224هـ/ 1809م)[7] وغيرهم.

ومن هنا يتّضح أنّه لا يُرجّح رأي من يقول إنّهم هم اليهود والنّصارى على رأي من يقول بعمومهم، فكلاهما صحيح؛ إذْ الحديث لم يأت لحصرهم بل جاء للتمثيل بأعظم المغضوب عليهم والضّالّين[8].

المثال الثّاني: قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[9] **وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ** ﷺ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ** ﷻ، **هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ** ﷺ **وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. وَالوَسَطُ العَدْلُ»**[10].

(7) مفاتيح الغيب، الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث، بيروت، ط:3، 2000م، 1/ 222؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ناصر الدين، دار إحياء التراث، بيروت، ط:1، 1998م، 1/ 31؛ اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل أبو حفص سراج الدين، دار الكُتُب العلمية، بيروت، ط:1، 1/ 226؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الإيجي أبو المعالي معين الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1424هـ-2004م، 1/ 24؛ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة أبو العباس احمد بن مُحَمَّد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، 1419هـ، 1/ 66.

(8) بحر العلوم، السمرقندي أبو الليث، دار الفكر، بيروت، 1/ 19؛ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي أبو القاسم مُحَمَّد بن احمد، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط: 1، 1416هـ، 1/ 66.

(9) البقرة 2/ 143.

(10) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ

«الوسط» في الأصل: اسمٌ لما بين طرفي الشَّيء الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثمّ استُعير للعدل الفاضل وللخصال المحمودة، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشّجاعة بين التّهور والجبن، ثمّ أطلق على المتّصف بها، مستوياً فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء[1]. أما الحديث الشريف فقد حددها بـ(العدل) الذي هو ثمرة الوسطية.

يقول الطّبريّ – مع روايته لحديث البخاري–: «وأنا أرى أنّ «الوسط» في هذا الموضع، **هو (الوسط) الذي بمعنى: الجزءُ الذي هو بين الطّرفين**، مثل (وسَط الدّار)... وأرى أنّ الله ﷻ إنّما **وصفهم بأنّهم (وسَط)، لتوسّطهم في الدّين**، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النّصارى الذين غلوا بالتّرهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربّهم، وكفروا به؛ ولكنّهم أهل توسّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها. وأما التأويل، فإنّه جاء بأنّ (الوسط) العدلُ. وذلك معنى الخيار، لأن الخيارَ من النّاس عُدولهم»[2].

ويقول ابن حجر العَسْقلاني (ت852هـ/ 1449م): «**لا يّلزم من كون الوسط في الآية صالحًا لمعنى التّوسط، أنْ لا يكون أريد به معناه الآخر، كما نصّ عليه الحديث، فلا مغايرة بين الحديث وبين ما دلّ عليه معنى الآية**»[3].

وجاء في معنى «وسطًا» عدّة تأويلات: أحدها: خياراً، والثّاني: أن الوسط من التّوسط في الأمور، لأنّ أحبّ الأمور أوسطها. والثّالث: يريد بالوسط: عدلاً، لأن العدل وسط بين الزّيادة والنّقصان[4].

فالرّسول ﷺ فسر «الوسطيّة» بما تؤول إليه وتثمره وهو «العدل».

والحقيقة أنّ معنى الوسطيّة في الآية عامّ شامل في وسطيّة العقيدة والأخلاق والشّريعة والزّمان والمكان... وكلّ وسطيّة منها هي عدالة، كما قال رسول الله ﷺ، بل من البديع أنّ هذه الآية في وسط سورة البقرة حيث رقمها (143) في سورة البقرة التي تتألف من (286) آية!!.

ومن أروع وأجمع ما يشرح الآية والحديث، ما قاله سيّد قطب (ت1966/ 1385): «وبهذا تتحدّد حقيقة هذه الأمّة ووظيفتها لتَعْرِفها، ولتشعر بضخامتها ولتقدّر دورها حقّ قدره، وتستعدّ له استعداداً لائقاً.

وإنّها للأمّة الوسط بكلّ معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحُسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادّيّ الحسيّ.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التّصور والاعتقاد لا تغلو في التّجرد الرّوحي ولا في الارتكاس الماديّ، إنّما تتّبع الفطرة الممثلّة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبّس به روح، وتعطي لهذا الكيانِ المزدوجِ الطّاقاتِ حقَّه المتكاملَ من

قَوْلِ اللهَّ ﷻ، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، 3339، 134/ 4.

(1) ينظر معاني القرآن وإعرابه، الزجاج أبو إسحاق، عالم الكتب، بيروت، 1988م، 219/ 1؛ تفسير القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة، د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب– جامعة طنطا، ط: 1، –1420 1999، 328/ 1؛ التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد (ت468هـ)، أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 2010م، 369/ 3؛ أنوار التنزيل، البيضاوي، 110/ 1؛ البحر المديد، ابن عجيبة، 174/ 1

(2) جامع البيان، الطبري، 142/ 3.

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت852هـ)، دار المعرفة، بيروت، 1959م، 173/ 8.

(4) التفسير البسيط، الواحدي، 371/ 3؛ النكت والعيون، الماوردي أبو الحسن علي بن محمد(ت450هـ)، دار الكُتُب العلمية، بيروت، 198/ 1، 199؛ مفاتيح الغيب، الرازي، 84/ 4؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور، 19/ 2.

كلّ زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النّوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق...

«أُمَّةً وَسَطاً» في التّفكير والشّعور لا تجمد على ما علِمتْ وتُغلق منافذ التّجربة والمعرفة، ولا تتّبع كذلك كل ناعق، وتقلّد تقليد القِرَدة المضحك إنّما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثمّ تنظر في كلّ نتاج للفّكر والتّجريب وشعارها الدّائم: الحقيقة ضالّة المؤمن أنّى وجدها أخذها، في تثبّت ويقين.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التّنظيم والتّنسيق لا تدع الحياة كلّها للمشاعر، والضّمائر، ولا تدعها كذلك للتّشريع والتّأديب، إنما ترفع ضمائر البشر بالتّوجيه والتّهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتّشريع والتّأديب وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تَكِلُ النّاس إلى سوط السّلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان...

«أُمَّةً وَسَطاً» في الارتباطات والعلاقات لا تُلغي شخصيّة الفرد ومقوّماته، ولا تلاشي شخصيّته في شخصيّة الجماعة أو الدّولة، ولا تطلقه كذلك فرداً أَشِراً جشِعاً لا همَّ له إلّا ذاته إنّما تُطلق من الدّوافع والطّاقات ما يؤدّي إلى الحركة والنّماء وتطلق من النّوازع والخصائص ما يحقّق شخصيّة الفرد وكيانه.

ثمّ تضع من الكوابح ما يقف دون الغلوّ، ومن المنشّطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة وتقرّر من التّكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتّساق.

«أُمَّةً وَسَطاً» في المكان في سرّة الأرض، وفي أوسط بقاعها، وما تزال هذه الأمّة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللّحظة هي الأمّة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على النّاس جميعاً وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطّبيعة وثمار الرّوح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة مادِّيَّها ومعنويَّها...

«أُمَّةً وَسَطاً» في الزّمان تُنهي عهد طفولة البشريّة من قبْلها، وتحرس عهد الرّشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشريّة ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدّها عن الفتنة بالعقل والهوى ...»[1].

والكلام عن وسطيّة المكان يؤكّده أنّ سبب نزول الآية: هو شأن «القبلة» واعتراض اليهود عليها. وقد استطاع فريق علميّ - في مصر - يرأسه د. حسين كمال الدّين أستاذ المساحة، في إثبات أنّ مكّة المكرّمة هي مركز اليابسة في الأرض، وقد كان هدفه في البداية الوصول إلى وسيلة تساعد المسلم من تحديد جهة القبلة من أيّ مكان على الأرض إلّا أنّه توصّل أثناء بحثه إلى ما يشبه النّظرية الجغرافيّة بأنّ مكّة هي مركز لدائرة تمر بأطراف كلّ القارات[2].

فتفسير النّبيّ ﷺ لا يمنع من حمل الآية على هذه المعاني.

المثال الثالث: قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[3] وعَنْ ابن مسعود ﷺ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت- القاهرة، 1412هـ، 131/ 1.

(2) إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة، الدكتور المهندس يحيى وزيري، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية وهو بحث من بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المقام بإستنبول في الفترة من 14-11 / 3/ 2011 م؛ الأرض في القرآن، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط.1، 1426هـ، 560؛ الأرض، خالد العبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1426هـ- 2005م، 93.

(3) الأنعام 82/ 6.

بِظُلْمٍ﴾ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]»[2]، وفي رواية، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»[3].

(الظلم) في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه[4].. والظُّلْمُ ثلاثةٌ أنواع: الأوّل: ظُلْمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشّرك والنّفاق، ولذلك قال: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، والثاني: ظُلْمٌ بينه وبين الناس، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[5]، والثالث: ظُلْمٌ بينه وبين نفسه بالمعاصي والذنوب، ومنه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[6]. فالظلم أعمّ من كونه شركا أو معصية..

والآياتُ القرآنيّة - ومنها عموم هذه الآية - والأحاديث مُتواترةٌ مُتكاثرة على أنّ المؤمنين العُصاة يُصيبهم الخوف وعدم الأمن على قدر معاصيهم -إنْ لم يكن عفوٌ من الرّحمن- ثمّ يأمنون ويذهبون إلى الجِنان، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[7]، وكقول الرَّسُولِ ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ»[8].

فهل سؤال الصّحابة الكرام ﷺ كان عن هذا الخوف المؤقّت لأهل التّوحيد؟ أَمْ عن الخوف الدّائم كحال أهل الشّرك؟ والجواب -والله أعلم-: أنّ الصّحابة سألوا عن الخوف الدّائم، أي: قالوا: أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ بالمعاصي؟! فهل سنبقى في الخوف الأبديّ وعدم الأمن؟ لأنّهم إنْ سألوا عن الخوف المؤقّت المعروف لعصاة الموحّدين. فإنّ جواب الرّسول لهم: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ» سيكون معناه: أنّه لا عذاب للعصاة بل لهم الأمن، إنّما الخوف وعدم الأمن للمشركين فقط. وهذا مستحيل تُنافيه كلّ الأدلة المطّردة في القُرآن والسّنة.

إذن لا تناقض بين عموم الآية الكريمة وبين الحديث الشّريف؛ حيث إنّ الرسول ﷺ أراد جوابهم بما يُبيّن العقيدة الصّحيحة ويُبعدهم عن اعتقاد الخوارج. وتبقى الآية على عمومها لكي لا تُناقض النّصوص الأخرى، ولكي لا تكون دليلًا للمرجئة، ولأنّ كلمة «ظلم» نكرة في سياق النّفي، فتفيد العموم.

فالجمع بين النّص القرآني الشّامل وبين الحديث المبيِّن يأتينا بالمعاني الكاملة التّامة، بخلاف تعطيل أحدهما، كما فعل المعتزلة، ومنهم الزمخشريّ (ت538هـ / 1143م)، فقد ردّوا الحديث وجعلوا الآية مستندهم ببدعتهم الضّالة بتكفير أهل الكبائر من أمّة مُحَمَّد، فقد قال الزمخشري: «أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس» ورد عليه ابن المنير في حاشيته: «وقد ورد أن الآية لما نزلت عظمت

(1) لقمان 13/ 31.
(2) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب احاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾، 3428، 163/ 4.
(3) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب احاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، 3360، 141/ 4.
(4) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق-بيروت، ط:1، 1412هـ. 537.
(5) الشورى 42/ 40، 41.
(6) آل عمران 3/ 135.
(7) النساء 10/ 4.
(8) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب المساقاة، بَابُ فَضْلِ سَقْيِ المَاءِ، 2365، 112/ 3؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ.

على الصحابة، وقالوا أينا لم يظلم نفسه، فقال ﷺ: «إنما هو الظلم في قول لقمان: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة، وأنهم لاحظ لهم في الأمن كالكفار، ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمر بالجامعين الأمرين: الإيمان والبراءة من المعاصي، ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق العصاة هو الخوف اللاحق الكفار، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود. وأما الكفار، فغير آمنين بوجه ما»[1].

وبخلاف أهل الإرجاء الذي يستندون للحديث متناسين سبب وروده وهو الآية الكريمة الجامعة المانعة.

والقول بأنّ الآية تشمل المعاصي قول بعض العلماء كما نقل الطّبريّ والماتريديّ (ت333هـ / 944م) والماورديّ (ت450هـ/ 1058م) والبيضاويّ والخازن (ت741هـ / 1341م) وأبو السّعود (ت982هـ / 1574م) وغيرهم. قال الطّبريّ: «وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظّلم، وذلك: فعلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله، **وقالوا: الآية على العموم**»[2].

فيكون معنى الآية كما قال السّعديّ (ت1376هـ/ 1956م):» فإنْ كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ مطلقًا، لا بشرك ولا بمعاصٍ، حصل لهم الأمن التّام والهداية التّامة. وإنْ كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشّرك وحده، ولكنّهم يعملون السّيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها»[3].

فيدخل في دلالة «الظّلم» كلّ ما جعله القُرآن والسّنة ظلمًا، وكذا ما سمّي ظلمًا في اللّغة العربيّة.

المثال الرّابع: قول الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[4] **وقول الرّسول ﷺ في تفسير القوة: «ألا إنّ القوّةَ الرّمْي ألا إنّ القوّةَ الرّمْي»**[5].

والقوة كلمة عامة يدخل تحتها أشكال كثيرة، والرمي واحد منها، وتستعمل في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاون من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيّة تارة. ففي البدن نحو قوله ﷻ: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[6] فالقوّة هاهنا قوّة البدن بدلالة أنه رغب عن القوّة الخارجة، فقال ﷻ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وفي القلب نحو قوله ﷻ: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[7] أي: بقوّة قلب. وفي المعاون من خارج نحو قوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾[8].. [9].

قال الطّبري: «فإنْ قال قائل: فإنّ رسول الله ﷺ قد بيَّن أنّ ذلك مرادٌ به الخصوص، بقوله: «ألا إنّ القوّة الرّمْي»؟ قيل له: إنّ الخبر، وإنْ كان قد جاء بذلك، **فليس في الخبر ما يدلّ على أنّه مرادٌ بها الرّمي خاصّة، دون سائر معاني القوّة عليهم، فإنّ الرّمي أحد معاني القوّة**»[10].

(1) ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري جار الله، بحاشية ابن المنير، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، 43/ 2.

(2) جامع البيان، الطبري، 502/ 11؛ وينظر تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، 150/ 4؛ النكت والعيون، الماوردي، 138/ 2؛ أنوار التنزيل، البيضاوي، 170/ 2؛ لباب التأويل، الخازن، 130/ 2؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 156/ 3. حيث نقلوا هذا القول مع تضعيفهم له.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م، 263.

(4) الأنفال 60/ 8.

(5) المسند الصحيح، مسلم بن الحجاج، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَذَمِّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، 1917، 1522/ 3؛ عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ.

(6) الكهف 18/ 95.

(7) مريم 19/ 12.

(8) هود 11/ 80.

(9) ينظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، 694.

(10) جامع البيان، الطبري، 37/ 14.

وكذا قال الواحديّ: «قال أهل التّحقيق: الأوْلى أن يقال: **هذا عام في كلّ ما يتقوى به على حرب العدوّ، ولا نخصّ شيئًا دون شيء**، فكل ما هو من آلة الغزو والجهاد فهو من جملة ما عني الله»[1].

وقال الرّازيّ: «قال أصحاب المعاني: الأَوْلى أنْ يقال: هذا عامّ في كلّ ما يتقوى به على حرب العدوّ، وكلّ ما هو آلةٌ للغزو والجهاد فهو من جملة القوّة. **وقوله** ﷺ: «**القوة هي الرمي**» **لا ينفي كون غير الرّمي معتبرًا، كما أنّ قوله** ﷺ: «**الحجّ عرفة**» و«**النَّدَم توبة**» **لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هاهنا**»[2].

وكذا قال أبو حيان (ت745هـ/ 1344م) والخازن وابن عادل والنّيسابوريّ (بعد850هـ/ بعد1446م) والبقاعيّ (ت885هـ / 1480م) والقونويّ وابن التّمجيد والآلوسيّ ت1270هـ/ 1854م) وغيرهم.

فانظر إلى هؤلاء الأئمّة رحمهم الله كيف أوّلوا الأحاديث التي جاءت في تفسير المعاني القرآنيّة: «**القوّة، الدّعاء، والتّوبة، والحجّ**»، **وأبقوا الآيات على عمومها وإطلاقها وشمولها.**

فكلّ ما يسمّى لغةً «قوّة» فهو داخل تحت مدلول الآية الكريمة الشّاملة، فما أعظم شريعتنا التي تأمرنا بالإعداد والقوّة وتنهانا عن الكسل والعجز، وما أظلم المسلمين المتقاعسين عن أوامر ربّهم ونبّيهم.

(1) التفسير البسيط، الواحدي، 216/ 10.

(2) ينظر مفاتيح الغيب، الرازي، 499/ 15؛ ينظر البحر المحيط، أبو حيان، 343/ 5؛ لباب التأويل، الخازن، 322/ 2؛ اللباب، ابن عادل، 552/ 9؛ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري نظام الدين، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 412/ 3؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي برهان الدين، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 314/ 8؛ حاشيتان على البيضاوي، القونوي وابن التمجيد، 293/ 14؛ روح المعاني، الآلوسي أبو الثناء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، 220/ 5.

المثال الخامس: قوله ﷻ: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾[3]، **وعن البراء بن عازب: أن رسول الله** ﷺ **قال**: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**»[4].

الآية الكريمة تتحدث عن تثبيت الله تعالى للمؤمنين الدائم بالقول الثابت في الدنيا وفي الآخرة، **و(الآخرة)** ما يقابل الدنيا، تبدأ من خروج روح الإنسان فالقبر والبرزخ والبعث والنشور والعرض.. إلى دخول الصالحين الجنان ودخول الكفار النار، كل ذلك يسمّى آخرة.. والتثبيت يمكن أن يكون في القبر وعلى الصراط وحين سؤال الله وملائكتِه لهم يوم المحشر والعرض، وفي البخاري منَ حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَعْرَابِ جُفَاةً، يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لاَ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»، قَالَ هِشَامٌ: يَعْنِي مَوْتَهُمْ[5].. أما حديث البراء بن عازب الوارد في تفسير الآية فيشير إلى القبر فقط.

ومما ورد من التثبيت في الدنيا قوله ﷻ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[6]،وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[7].

ومما جاء من التثبيت يوم القيامة ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي

(3) إبراهيم 14/ 27.

(4) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾، 4699، 6/ 80.

(5) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت،6511، 8/ 107.

(6) النحل16/ 102.

(7) الإسراء 74/ 17.

صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ العَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلَا يَتْبَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ العَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، اللهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا **وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ**، ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ اللهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا **وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ**، قَالُوا: وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ..»[1].

ومما ورد أيضًا: ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عن رَسُولُ اللهِ ﷺ: «.. وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ **أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ**»[2].

وقد قال الرازي معلقا على الحديث: «وإنما فسر الآخرة هاهنا بالقبر، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة»[3]، فالقبر أول منزل من منازل الآخرة.

وقد تكلم المفسرون في تفسير الآية وأنها على عمومها، كما قال أبو حيان: «وتثبيتهم به في الدّنيا: كونهم لو فتنوا عن دينهم في الدّنيا لثبتوا عليه وما زلّوا، كما جرى لأصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، وكشطت لحومهم بأمشاط الحديد، كما ثبت جرجيس وشمعون وبلال حتى كان يعذب بالرمضاء وهو يقول: أحد أحد.

وتثبيتهم في الآخرة: كونهم إذا سُئلوا عند توافق الإشهاد عن معتقدهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيّرهم أهوال الحشر...

وقال طاووس وقتادة وجمهور من العلماء: إن تثبيتهم في الدنيا: هو مدة حياة الإنسان، وفي الآخرة هو وقت سؤاله في قبره، ورجح هذا القول الطبري [4].

وقال البراء بن عازب وجماعة: في الحياة الدنيا: هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ، وفي الآخرة هو يوم القيامة عند العرض.

وقيل: معنى تثبيته في الحياة الدنيا وفي الآخرة: هو حياته على الإيمان، وحشره عليه.

وقيل: التثبيت في الدنيا الفتح والنصر، وفي الآخرة الجنة والثواب.

وما صح عن الرسول ﷺ في حديث البراء من تلاوته عند إيعاد المؤمن في قبره، وسئل وشهد شهادة الإخلاص قوله تعالى: يثبت الله الذين آمنوا الآية لا يظهر منه؛ يعني: أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان، وأن الآخرة في القبر، ولا أن الحياة الدنيا هي في القبر، وأن الآخرة هي يوم القيامة، بل اللفظ محتمل. ومعنى يثبت: يديمهم عليه، ويمنعهم من الزلل»[5].

ومثله نقل الواحدي وابن الجوزي وابن عطية والبيضاوي والقرطبي والرازي والآلوسي وغيرهم[6].

---

(1) السنن، الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار، 2557، 4/ 691. وأصله في الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، 806، 1/ 160.

(2) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد، (ت360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، 6026، 6/ 139.

(3) مفاتيح الغيب، الرازي، 19/ 94.

(4) ينظر جامع البيان، الطبري، 16/ 602-589.

(5) البحر المحيط، أبو حيان في التفسير، 6/ 434..

(6) ينظر التفسير البسيط، الواحدي، 12/ 472؛ زاد المسير، ابن الجوزي، 2/ 512؛ المحرر الوجيز، ابن عطية، 3/ 337؛ أنوار التنزيل، البيضاوي، 3/ 198؛ الجامع لأحكام القُرآن، القرطبي، 9/ 363؛ مفاتيح الغيب، الرازي، 19/

وقال السمرقندي: «يثّبتهم على ذلك القول عند النزع وَفِي الْآخِرَةِ يعني: في القبر»[1].

فهذه التفاسير التي تأخذ بعموم الآية الكريمة لا تخالف الحديث، إذ الحديث يتكلم عن أهم موقف من مواقف التثبيت العظيمة والخطيرة، كما قال ابن عاشور: «**ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما – الدنيا والآخرة – ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر**»[2].

وقال ابن حجر معلقاً على حديث أبي هريرة السابق في تثبيت الله للناس يوم القيامة على الصراط، وحين يمتحنهم الله بإرسال من يقول لهم أنا ربكم: «وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، وهي وإن ورد أنها في **عذاب القبر فلا يبعد أن تتناول يوم الموقف أيضا**»[3].

المثال السّادس: في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[4] **وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ** ﷺ **أنّ الرسول** ﷺ **قَالَ:«أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَمَالَأَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَا أَنَا مِنْهُ. وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُمَالِئْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، أَلَا وَإِنَّ دَمَ الْمُسْلِمِ كَفَّارَتُهُ، أَلَا وَإِنَّ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»**[5].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله** ﷺ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**»[6].

الآية الكريمة عامّة مطلقة شاملة لكلّ الصالحات، بخلاف الحديث الوارد عن الرسول ﷺ فإنه حددها بالأذكار الشريفة المذكورة.

وقد ذكر الطّبريّ اختلاف أهل التأويل في المعنيِّ بالباقيات الصّالحات، فقال بعضهم: هي الصّلوات الخمس. وقال بعضهم: هي ذكر الله بالتّسبيح والتّقديس والتّهليل، ونحو ذلك، وقال بعضهم: هي العمل بطاعة الله، وقال بعضهم: الكلام الطّيّب. وعن ابن عباس: هي ذكر الله، قول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلّى الله على رسول الله والصّيام والصّلاة والحجّ والصّدقة والعتق والجهاد والصّلة، وجميع أعمال الحسنات، وهنّ الباقيات الصّالحات، التي تبقى لأهلها في الجنّة ما دامت السّماوات والأرض.. ثم قال: «**وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصّواب، قول من قال: هنّ جميع أعمال الخير**، كالذي رُوي عن عليّ بن أبي طلحة (ت143هـ/ 760م)، عن ابن عباس، لأنّ ذلك كلّه

93، 94؛ روح المعاني، الآلوسي، 7/ 205.

(1) بحر العلوم، السمرقندي، 2/ 242.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 13/ 227.

(3) فتح الباري، ابن حجر، 13/ 428، وينظر كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمَّد الخَضِر الشنقيطي (ت 1354هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1415هـ- 1995م، 9/ 319.

(4) الكهف 18/ 46.

(5) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون مؤسسة الرسالة، بيروت ط :1، ، 1421هـ، 18353، 299/ 30، وصححه محققه.

(6) السنن الكبرى، النسائي، حققه وخرج أحاديثه، حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1421هـ- 2001م، كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الناقلين لخبر سمرة في ذلك، 10617، 313/ 9؛ المستدرك على الصحيحين، الحاكم أبو عبدالله، ط: 1، المكتبة العلمية، بيروت، 1990م، كِتَابُ الدُّعَاءِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ، 1985، 1/ 725، وقال، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

من الصّالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يُجازى ويُثاب، وإنّ الله عزّ ذكره لم يخصّص من قوله ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ بعضًا دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله ﷺ.

فإن ظنّ ظانّ أنّ ذلك مخصوصٌ بالخبر الذي رويناه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ، فإنّ ذلك بخلاف ما ظنّ، وذلك أنّ الخبر عن رسول الله ﷺ إنّما ورد بأنّ قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هنّ من الباقيات الصّالحات، ولم يقل: هنّ جميع الباقيات الصّالحات، ولا كلّ الباقيات الصّالحات، وجائز أن تكون هذه باقيات صالحات، وغيرها من أعمال البرّ أيضًا باقيات صالحات»[1]...

إذن فما بينه الرسول ﷺ إنما هو على سبيل التّمثيل، كما قال الخفاجي (ت1069هـ/ 1659م) والقونوي وابن التمجيد والقاسمي (ت1332هـ/ 1914م)[2] وغيرهم.

قال محي الدين شيخ زاده القُوجَوي (ت951هـ/ 1544م): «ما وقع في بعض التفاسير المأثورة من تفسيرها بما ذكر **على سبيل التمثيل لا للتخصيص والحصر**»[3].

إذن فكل معنى يدخل تحت عموم دلالة «الباقيات الصّالحات» ولا يخالف النّصوص أو العقل أو اللّغة فهو صحيح.

المثال السّابع: قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4] **وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»**[5]، **وَقَرَأَ الآية.**

فسر النبي ﷺ العبادة في الآية الكريمة بالدعاء، **ومن المعلوم أن العبادة أوسع من الدعاء، لأنّ العبادة هي الطّاعة والانقياد والخضوع لأوامر الله ومراده**، ولكن **الدعاء من أعظم أبوابها**، كما قال الإمام البيضاوي[6]، وقال أبو السعود: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعوني: أي: **اعبدوني**. أَسْتَجِبْ لَكُمْ، أي: أُثبكم؛ لقولِه ﷻ: ﴿**إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين**﴾، أيْ صاغرينَ أذلاّء، وإنْ فُسِّرِ الدعاءُ بالسؤالِ كانَ الأمرُ الصارفُ عنه منزّلاً منزلةَ الاستكبارِ عن العبادةِ للمبالغةِ، أو **المرادُ بالعبادةِ الدعاءُ فإنَّه من أفضلِ أبوابِها**»[7].

قال الإمام الرّازيّ: «فقوله ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» معناه أنه **معظم العبادة وأفضل العبادة**، كقوله ﷺ: «الحجّ عرفة» أي: الوقوف بعرفة هو الرّكن الأعظم»[8]، وإنما كان الدعاء كذلك؛ لما فيه من إظهار غاية التذلل والافتقار لله ﷻ.

وقال ابن حجر: «وهذه الآية ظاهرة في ترجيح الدّعاء على التّفويض، قالت طائفة: الأفضل ترك الدّعاء

---

(1) جامع البيان، الطبري، 35/ 18. ينظر أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 1424هـ- 2003م، 3/ 235؛ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، 3/ 520؛ أنوار التنزيل، البيضاوي، 3/ 283؛ البحر المحيط، أبو حيان، 7/ 186؛ فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، 1994م، 3/ 344.

(2) عنايه القاضي وكفاية الراضي، الشهاب الخفاجي، دار صادر، بيروت، 6/ 105؛ حاشيتان على البيضاوي، القونوي وابن التمجيد، 12/ 95؛ محاسن التأويل، القاسمي جمال الدين، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1418هـ، 7/ 40.

(3) حاشية على تفسير البيضاوي، محي الدين زاده القُوجَوي (ت951هـ)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط:1، 1419هـ، 5/ 581.

(4) غافر 60/ 40.

(5) السنن، الترمذي، بَابٌ، وَمِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ، 2969، 5/ 211؛ وقال، هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(6) أنوار التنزيل، البيضاوي، 5/ 62.

(7) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 7/ 282.

(8) مفاتيح الغيب، الرازي، 5/ 264.

والاستسلام للقضاء، وأجابوا عن الآية بأنّ آخرها دلّ على أن المراد بالدّعاء العبادة؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، واستدلوا بحديث النّعمان بن بشير أن النّبيّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ..».. وشذّت طائفة فقالوا: المراد بالدّعاء في الآية ترك الذّنوب، وأجاب الجمهور: **أنّ الدّعاء من أعظم العبادة، فهو كالحديث الآخر: «الحجّ عرفة» أي معظم الحجّ وركنه الأكبر»**[1].

المثال الثامن: في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[2]. **وجاءت الأخبار الكثيرة الصّحيحة عن رسول الله ﷺ أنّه نهرٌ في الجنّة؛ فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ – أَوْ طِيبُهُ – مِسْكٌ أَذْفَرُ»**[3].

وبالطّبع فلا خلاف بين الآية والحديث؛ إذ الكوثر في الحقيقة هو الخير الكثير، وحوض الكوثر منه، بل هو أعظمه؛ فقد روى البخاريّ وغيره عن أَبي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ (ت95ه/ 714م)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّهُ قَالَ فِي الكَوْثَرِ: «هُوَ الخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ»، قَالَ أَبُو بِشْرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: **النَّهَرُ الَّذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ**[4].

قال الواحديّ: «الكوثر عند أهل اللّغة: فوعل من الكثرة، ومعناه: العدد الكثير، والخير الكثير ويقال للرّجل الكثير العطاء: كوثر... واختلف المفسّرون في تفسيره، فالذي عليه الأكثرون أنّه نهر في الجنّة... قال أهل المعاني: يجوز أنْ يكون سمّي ذلك النّهر أو ذلك الحوض؛ لكثرة الواردة والشّاربة من أمّته هناك. ويجوز أن يكون سمّي بذلك؛ لما فيه الخير الكثير... ونحو هذا قال الكلبيّ (ت146هـ/ 763م): إنا أعطيناك الخير الكثير، منه القرآن، وهو أفضله. وهذا قول الحسن في تفسير الكوثر أنّه القرآن العظيم. وقال عكرمة: هو النّبوّة والكتاب. وقال أبو بكر بن عيّاش (ت95هـ/ 714م): هو العدد الكثير من الأصحاب والأشياع .

وقول ابن عباس شامل لهذا كلّه، لأنّ جميع هذا من الخير الكثير. قال أبو إسحاق: وجميع ما جاء في تفسير الكوثر قد أُعطيه النّبيّ ﷺ، أُعطي النّبوة، والإسلام، وإظهار الدّين على كل الأديان، والنّصر علي عدوّه، والشّفاعة، وما لا يحصى، وقد أعطى من الجنّة على قدر فضله على أهل الجنّة»[5].

قال ابن تيميّة:» **وحذَفَ موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم؛ لما فيه من عدم التّعيين**، وأتى بالصّفة، أي: أنّه سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فوصفه بالكوثر، والكوثر المعروف إنّما هو نهر في الجنّة، كما قد وردت به الأحاديث الصّحيحة الصّريحة، وقال ابن عباس: الكوثر **إنّما هو من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه** وإذا كان أقلّ أهل الجنّة مَن له فيها مثل الدّنيا عشر مرّات، فما الظّنّ بما لرسول الله ﷺ ممّا أعدّه الله له فيها، فالكوثر علامة وأمارة على تعدّد ما أعدّه الله له من الخيرات واتّصالها وزيادتها وسموّ المنزلة وارتفاعها»[6].

---

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 94/ 11.

(2) الكوثر 1/ 108.

(3) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، 6581، 120/ 8

(4) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب التفسير، بَابُ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، 4966، 178/ 6.

(5) التفسير البسيط، الواحدي، 371/ 24؛ 377، ينظر تأويلات أهل السنة، الماتريدي، 627/ 10؛ الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ط:1، جامعة الشارقة، الأمارات، 2008، 8468/ 12؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، دار القلم، دمشق، 126/ 11، 128؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور، 573/ 30.

(6) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، 529/ 16، 530.

المثال التّاسع: في قول الرّسول ﷺ: «الحج عرفة»[1] الذي هو تفسير من النّبي لـ«الحج» الوارد في قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[2] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[3]، فقد أطبق المفسّرون وشرّاح الحديث أنّ المقصود من هذا الحديث: مُعْظَمُ الحجِّ وَعِمَادُهُ، ومنهم على سبيل المثال: الماتريدي وابن الجوزي والرازي وابن عادل والطيبي وأبو حيان والخازن وأبو بكر بن العربي وشمس الدين الكرماني والبرماوي والسيوطي وزكريا الأنصاري والزرقاني[4].

فتفسيره هنا بأعظم ركنٍ فيه؛ إذْ الحجّ فيه الطّواف والسّعي والمشعر الحرام، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[4]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[5]، وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[6].

المثال العاشر: وكما جاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[7]، وقول الرّسول ﷺ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» [8].

فمن المعروف أن الندم هو أحد شروط التوبة المفروضة؛ إذ شروطها: هي النَّدَم على ماضي الذنوب، والإقلاع عنها في الحاضر، والعزم على عدم العودة في المستقبل، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال[9].

(1) السنن، الترمذي، أَبْوَابُ الحَجِّ، بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ أَدْرَكَ الإِمَامَ بِجَمْعٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ 889، 228/ 3. وهو صحيح.

(2) البقرة 197/ 2.

(3) آل عمران 97/ 3.

(4) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، 2/ 60؛ زاد المسير، ابن الجوزي، 1/ 164؛ مفاتيح الغيب، الرازي، 5/ 264؛ اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، 3/ 297؛ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي الحسين بن عبدالله (ت743هـ)، تحقيق: إياد الغوج، جائزة دبي الدولية، ط. 1، 1434هـ- 2013م، 16/ 659؛ البحر المحيط، أبو حيان، 5/ 343؛ لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، 2/ 322؛ المنتقى شرح الموطأ، الباجي أبو الوليد، مطبعة السعادة، مصر، ط: 1، 1332، 1/ 11؛ المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، أبو بكر بن العربي (ت543هـ)، قرأه وعلّق عليه: محمد بن الحسين السُّليماني وعائشة بنت الحسين السُّليماني، دَار الغَرب الإسلامي، ط:1، 1428هـ- 2007م، 2/ 375؛ القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، أبو بكر بن العربي (ت543هـ)، تحقيق: د.محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1992م، 545؛ الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني(ت786هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، 1356هـ، 1/ 217؛ اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، البرماوي محمد بن عبد الدائم (ت831هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط:1، 1433هـ- 2012م، 1/ 316؛ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1389هـ - 1969م، 1/ 82؛ منحة الباري بشرح صحيح البخاري، زكريا الأنصاري (ت926هـ)، تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط:1، 1426هـ- 2005م، 1/ 148؛ شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، الزرقاني محمد بن عبد الباقي(ت 1122هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:1، 1424هـ- 2003م، 2/ 469.

(4) الحج 29/ 22.

(5) البقرة 2/ 158

(6) البقرة 2/ 198.

(7) البقرة 37/ 2.

(8) السنن، ابن ماجة أبو عبدالله مُحَمَّد بن يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، كتاب الزهد، بَابُ ذِكْرِ التَّوْبَةِ، 4252، 1420/ 2؛ المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كِتاب التَّوبة والْإِنابة، 7612، 271/ 4؛ وصححه ووافقه الذهبي.

(9) ينظر جامع البيان، الطبري، 3/ 81؛ الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن ابي طالب، 1/ 447؛ النكت والعيون، الماوردي، 2/ 37؛ أنوار التنزيل، البيضاوي، 1/ 73؛

قال أبو حيّان: «اختلف في التّوبة المطلوبة من العبد، فقال قوم: هي النَّدَم، أخذا بظاهر قوله ﷺ: «النَّدَم تَوْبَةٌ»، وقال قوم: شروطها ثلاثة: النَّدَم على ما فات، والإقلاع عنه، والعزم على أن لا يعود. **وتأولوا: النَّدَم توبة على معظم التّوبة نحو: الحجّ عرفة**»[1]. وقال الخازن وقوله: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» فهذا **لا ينفي اعتبار غيره بل يدلّ على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجلّه**»[2]. وكذا قال جلّ المفسرين والعلماء كالقاضي عياض (ت1149/ 544) والرّازيّ والسّمين والخازن وابن عادل والقونويّ وابن التّمجيد والصّاويّ..[3].

المثال الحادي عشر: قوله ﷻ: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾[4]، **وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **نَظَرَ إِلَى القَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»**[5].

أصل الغَسَق الدّخول في الظّلام، أو الجريان بالضّرر، كقولهم: غسقت القرحة إذا جرى صديدها، والغسّاق: صديد أهل النّار، لجريانه بالعذاب وغسقت عينه إذا جرى دمعها بالضّرر في الحلق. وفي معنى الآية أقوال: الأوّل: أنه اللّيل إذا أظلم، وهذا قول الأكثرين. الثّاني: أنّه القمر إذا دخل في الكسوف أو إذا أظلم به. الثّالث: أنه الشّمس إذا غربت. الرّابع: أنّه النّهار إذا دخل في اللّيل. الخامس: أنه سقوط الثّريا وكانت الأسقام تهيج عنده. السّادس أنّه الأسْود من الحيّات ووقبه ضربه[6].

وقال الطّبريّ بعد ذكر الحديث وأقوال السلف: «وأَوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصّواب، أن يقال: إنّ الله أمر نبيّه ﷺ أن يستعيذ {مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ} وهو الذي يُظْلم، يقال: قد غَسَق الليل يَغْسُق غسوقا: إذا أظلم. {إِذَا وَقَبَ} يعني: إذا دخل في ظلامه؛ والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنّجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، **ولم يخصّص بعض ذلك بل عمّ الأمر بذلك، فكلّ غاسق، فإنّه** ﷺ **كان يُؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب**»[7].

إذن فكل معنى يوافق العربيّة، ويندرج تحت عموم «الغاسق» ولا يخالف نصًّا أو عقلًا فهو صحيح.

وقال ابن كثير والشّوكاني بعد ذكر الحديث وتصحيحه: «وهذا لا ينافي قول الجمهور، لأنّ القمر آية اللّيل ولا يوجد له سلطان إلّا فيه»[8]. **فانظر كيف تمسك العلماء بعموم الآية، وجعلوا الحديث موجّها إلى أخطر ما يلابس الليل والذي هو علامته.**

فتوح الغيب، الطيبي، 2/ 447؛ الخازن، لباب التأويل، 2/ 402؛ التسهيل، ابن جزي، 2/ 68؛ نظم الدرر، البقاعي، 2/ 276؛ إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 1/ 92.

(1) البحر المحيط، أبو حيان، 269/ 1.

(2) لباب التأويل، الخازن، 2/ 322.

(3) إكمال المعلم بفوائد مسلم، المازري مُحَمَّد بن علي، التحقيق: د. يحيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط: 1، 1419هـ- 1998م، 241/ 8؛ مفاتيح الغيب، الرازي، 499/ 15؛ عمدة الحفاظ، السمين، 157/ 4؛ اللباب، ابن عادل، 552/ 9؛ حاشيتان على البيضاوي، القونوي وابن التمجيد، 20/ 265؛ حاشية على تفسير الجلالين، الصاوي، 709.

(4) الفلق 113/ 3.

(5) السنن، الترمذي، أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، 3366، 452/ 5. وقال، هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(6) ينظر الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، 8509/ 12؛ تفسير القرآن، السمعاني، 305/ 6؛ التفسير البسيط، الواحدي، 458/ 24؛ النكت والعيون، الماوردي، 375/ 6؛ زاد المسير، ابن الجوزي، 508/ 4؛ مفاتيح الغيب، الرازي، 374/ 32؛ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، 526/ 2.

(7) جامع البيان، الطبري، 704/ 24.

(8) تفسير القُرآن العظيم، ابن كثير، 505/ 8؛ فتح القدير، الشوكاني، 640/ 5.

الخاتمة:

تبيّن لنا من هذا البحث الصّغير ما يلي:

1. وجوب طاعة الرسّول ﷺ في كل أوامره ونواهيه.
2. السنّة تبيّن القران وتشرحه وتخصّص عامّه وتقيّد مطلقه وتوضّح مبهمه...
3. عموم القُرآن ودلالاته تبقى على حالها، ما لم يأت دليل صحيح صريح **لا تأويل له** يخرجها عنها.
4. صاغ الله ألفاظ القُرآن الكريم بصورة معجزة قابلة لأداء المعاني وتجدّدها مع كل زمان ومكان.
5. يجوز التمسّك بعموم القُرْآن، والزّيادة على تفسير النّبيّ ﷺ. ولكن بشرط أنْ لا تكون المعاني المستنبطةُ مخالفةً لنصوصِ الكتابِ والسّنةِ. وأنْ لا يخالف الإجماع، أو قواعدَ التَّفسيرِ واللغةِ العربيةِ. وكمثالٍ على اعتماد عموم القُرْآن وإطلاقه يمكن الاطلاع على بحثنا حول سدرة المنتهى، المنشور في «مجلة الدراسات التربوية والعلمية» التي تُصدرها «كلية التربية في الجامعة العراقية»، وهي مجلة علمية فصلية مُحكَّمة، العدد السادس عشر، المجلد الثاني، علوم القرآن، جمادى الآخرة 1441هـ - شباط 2020م، من صفحة (55) إلى صفحة (74).
6. لا خلاف بين اللّغة العربيّة وبين بيان الرّسول، لأنّ التَّفاسير النَّبويّة تكون بِعِدّة أشكال من أشكال التضمن والالتزام: فقد تكون على سبيل التَّمثيل بمعظم الشَّيء، أو أهمّه. أو تكون بثمرته ونتيجته ومآله. أو تكون بملازمه ومجاوره. أو تكون بباعثه. أو تكون لدفع شبهة معيّنة أو عقيدة فاسدة.

المصادر

1. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، دار الفكر، لبنان، 1996م.
2. إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة، الدكتور المهندس يحيى وزيري، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية وهو بحث من بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المقام بإستنبول في الفترة من 14-11/ 3/ 2011م.
3. أحكام القرآن، ابن العربي أبو بكر (ت543هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:3، 1424هـ- 2003م.
4. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي (ت982هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
5. إرشاد الفحول، الشوكاني مُحَمَّد بن علي (ت250هـ)، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 1419هـ- 1999م.
6. الأرض، خالد العبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1426هـ- 2005م.
7. الأرض في القرآن، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط.1، 1426هـ.
8. إكمال المعلم بفوائد مسلم، المازري مُحَمَّد بن علي (ت544هـ)، التحقيق: د. يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء، مصر، ط:1، 1419هـ- 1998م.
9. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ناصر الدين (ت685هـ)، دار إحياء التراث، بيروت، ط:1، 1998م.
10. بحر العلوم، السمرقندي أبو الليث (ت373هـ)، دار الفكر، بيروت.

11. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة أبو العباس احمد بن مُحَمَّد (ت1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، 1419هـ.
12. تأويلات أهل السنة، الماتريدي ابو منصور مُحمّد بن مُحمّد (ت333هـ)، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
13. التحبير شرح التحرير، المرداوي علاء الدين (ت885هـ)، تحقيق: عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، الرياض، مكتبة الرشد.
14. التحرير والتنوير، ابن عاشور مُحَمَّد بن الطاهر (ت1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ط:1، 1984م.
15. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي أبو القاسم مُحَمَّد بن احمد (ت741هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط:1، 1416ه.
16. التفسير البسيط، الماوردي أبو الحسن علي بن أحمد (ت468هـ)، أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 2010م
17. تفسير القُرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء (ت774هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، 1999م.
18. تفسير القرآن، ابن عرفة أبو عبد الله محمد بن محمد (ت803هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م.
19. تفسير القرآن، الراغب الأصفهاني (ت502هـ)، تحقيق ودراسة، د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب- جامعة طنطا، ط:1، 1420- 1999.
20. التلخيص في أصول الفقه، الجويني ابو المعالي (ت478هـ)، تحقيق: عبد الله جولم، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
21. تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1389هـ-1969هـ.
22. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن سراج الدين (ت804هـ)، دار النوادر، دمشق، ط:1، 1429هـ- 2008م.
23. تيسير الكريم الرحمن، السعدي عبد الرحمن (ت1376هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م.
24. جامع البيان في تفسير القرآن، الإيجي أبو المعالي معين الدين (ت905هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1424هـ- 2004م.
25. جامع البيان، الطبري مُحَمَّد بن جرير(310هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:1، 2000م.
26. الجامع الصحيح، البخاري محمد بن إسماعيل (ت256هـ)، دار طوق النجاة، ط1، بيروت، 2002م.
27. الجامع لأحكام القُرآن، القرطبي أبو عبدالله (ت671هـ)، دار الكُتُب المصرية، القاهرة، ط:2، 1964م.
28. حاشيتان على البيضاوي، القونوي عصام الدين إسْمَاعيل بن مُحَمَّد (ت1195هـ)، وابن التمجيد مصلح الدين (تنحو880هـ)، تحقيق: عبدالله محمود مُحَمَّد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 2001م.
29. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي (ت756هـ)، دار القلم، دمشق.
30. روح المعاني، الآلوسي أبو الثناء (ت1270هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.
31. السنن الكبرى، النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت303هـ)، حققه وخرج أحاديثه، حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه، شعيب الأرناؤوط،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:1، 1421هـ-2001م.
32. السنن، ابن ماجة أبو عبدالله مُحَمَّد بن يزيد (ت273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر
33. السنن، ابو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (ت275هـ)، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.
34. السنن، الترمذي مُحَمَّد بن عيسى (ت279هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط:2، 1975م.
35. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، الزرقاني محمد بن عبد الباقي(ت 1122هـ)، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، ط:1، 1424هـ-2003م.
36. شرح صحيح مسلم، النووي أبو زكريا يحيى بن شرف (ت676هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:2، 1392هـ.
37. شعب الإيمان، البيهقي أحمد بن الحسين (ت458هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، 2002م.
38. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي (ت756هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة، 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
39. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني بدر الدين (ت855هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
40. عناية القاضي وكفاية الراضي حاشية علي البيضاوي، الشهاب الخفاجي (ت1069هـ)، دار صادر، بيروت.
41. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري نظام الدين (ت850هـ)، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
42. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت852هـ)، دار المعرفة، بيروت، 1959م.
43. فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، 1994م، 344/ 3.
44. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي الحسين بن عبدالله (ت743هـ)، تحقيق: إياد الغوج، جائزة دبي الدولية، ط:1، 1434هـ-2013م.
45. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم (ت1385هـ)، دار الشروق، بيروت- القاهرة، 1412هـ.
46. القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، أبو بكر بن العربي (ت543هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1992م.
47. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري جار الله (ت538هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
48. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين الكرماني(ت786ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 1356هـ.
49. كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمَّد الخَضِر الشنقيطي (ت1354هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:1، 1415هـ-1995م.
50. اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، البرماوي محمد بن عبد الدائم (ت831هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط. 1، 1433هـ- 2012م.
51. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل أبو حفص سراج الدين (ت775هـ)، دار الكُتُب العلمية، بيروت.

52. لسان العرب، ابن منظور مُحَمَّد بن مكرم (ت711هـ)، دار صادر، بيروت، ط:3، 1414هـ.
53. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي نور الدين علي بن ابي بكر (ت807هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994م.
54. مجموع الفتاوى، ابن تيمية تقي الدين (ت728هـ)، دار الوفاء، مصر، ط:3، 2005م.
55. محاسن التأويل، القاسمي جمال الدين (ت1332هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1418هـ.
56. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق (ت542هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
57. المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، أبو بكر بن العربي (ت543هـ)، قرأه وعلّق عليه: محمد بن الحسين السُّليماني وعائشة بنت الحسين السُّليماني، دَار الغَرب الإسلامي، ط:1، 1428هـ-2007م.
58. المستدرك على الصحيحين، الحاكم أبو عبدالله (ت405هـ)، ط:1، المكتبة العلمية، بيروت.
59. المسند الصحيح، مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، دار إحياء التراث، بيروت.
60. المسند، أحمد بن حنبل (ت241هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون مؤسسة الرسالة، بيروت، ط :1، 1421هـ.
61. المصنف، ابن أبي شيبة أبو بكر عبدالله بن مُحَمَّد (ت235هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ.
62. معاني القرآن وإعرابه، الزجاج أبو إسحاق (ت311هـ)، عالم الكتب، بيروت، 1988م.
63. المعجم الأوسط، الطَّبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة.
64. المعجم الكبير، الطَّبراني أبو القاسم سليمان بن احمد (ت360هـ)، مكتبة الزهراء، الموصل، 1983م
65. مفاتيح الغيب، الرازي فخر الدين (ت606هـ)، دار إحياء التراث، بيروت، ط:3، 2000م.
66. المنتقى شرح الموطأ، الباجي أبو الوليد (ت474هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ط:1، 1332هـ.
67. منحة الباري بشرح صحيح البخاري، زكريا الأنصاري (ت926هـ)، تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط:1، 1426هـ-2005م.
68. المنهل العذب المورود شرح سنن ابي داود، محمود السبكي (ت1352هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط:1، 1353هـ.
69. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي برهان الدين (ت885 هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
70. النكت والعيون، الماوردي أبو الحسن علي بن محمد (ت450هـ)، دار الكُتُب العلمية، بيروت.
71. الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب (ت437هـ)، ط:1، جامعة الشارقة، الأمارات، 2008م.